الشَّاطِئُ الرَّمْلِيُّ

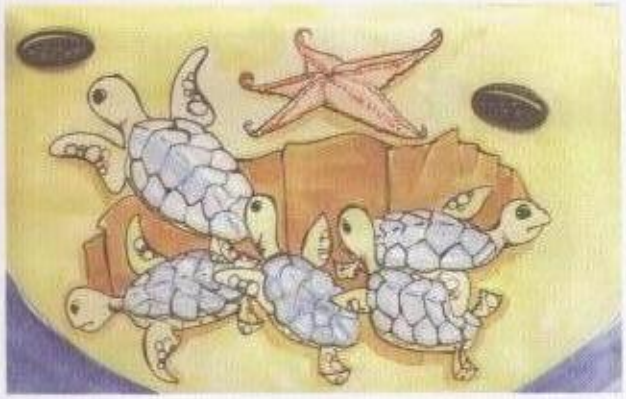

تأليف:
يوسف البعيني

رسوم:
دايڤيد پينفور

دار مكتبة المعارف
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة لـ دار مكتبة المعارف للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان
جميع حقوق الاستغلال للطبعة العربية، بأي طريقة من الطرق، محفوظة للناشر،
ولا يجوز بغير إذن كتابي مسبق من الناشر القيام بأي عملية استغلال للمصنف،
بأي تقنية معروفة حاليًا أو في المستقبل، بما في ذلك النسخ والترجمة والتخزين
أو التحميل، بالإضافة أو بالإنزال، على ذاكرة الحاسوب أو التثبيت على أي دعامة،
أو الإتاحة عبر شبكة الإنترنت أو أي من شبكات المعلومات المفتوحة أو المغلقة.

دار مكتبة المعارف
بيروت - لبنان

كورنيش المزرعة - جانب جامع عبد الناصر
بناية اسكندراني - الطابق الثاني
تلفاكس: ٧ /٨٥٢ ١ ٦٥٣ ٩٦١+
٨٧٨ ١ ٦٤٠ ٩٦١+
ص. ب.: ١١/١٧٦١ بيروت - لبنان

E-mail: al_maaref@hotmail.com
www.daralmaaref.com

ISBN: 978-9953-69-249-4

الطبعة الأولى ٢٠١١ م
طُبع في لبنان

Copyright © 2011 by
Dar Al-Maaref Bookshop
Corniche El-Mazraa
P.O. Box: 11/1761
Beirut - Lebanbon
First Published 2011 Beirut

تصميم وتنفيذ: سامو برس غروب

ارْتَدَتِ الشَّمسُ ثوبَها الأحْمَرَ، وراحَتْ تَخْتَبِئُ وَراءَ البَحْرِ رُوَيْدًا رُوَيْدًا، فَأَمْسَتْ على وَشْكِ المَغيبِ، وبَدَأَ الظلامُ يَتَهَيَّأُ لِقَرْعِ أبْوابِ السَّماءِ.

سَكَنَ كُلُّ شَيءٍ باسْتِثْناءِ أمْواجٍ مُزْبِدَةٍ لَمْ تَتْعَبْ مِنْ مُداعَبَةِ شاطِئٍ رَمْليٍّ جَميلٍ؛ وَعَلى ذٰلك الشاطِئِ اسْتَساغَتْ حَبّاتُ الرَّمْلِ زَبَدَ الأمْواجِ، فَفَرِحَتْ وَشَعَرَتْ بالِانْتِعاشِ وَهُوَ يُعانِقُها، وَقَرَّرَتْ أنْ تَلعَبَ مَعَهُ.

انْتَصَبَتْ حَبّاتُ الرَّملِ وراحَتْ تُراقِبُ البَحْرَ، وَعِندَما أتَتِ المَوْجَةُ الأُولى وَأفْرَغَتْ زَبَدَها فَوْقَها، سَبَحَتْ مَعها إلى الأَمامِ، ثُمَّ إلى الخَلْفِ حينَما قَرَّرَتِ المَوجَةُ العَودَةَ إلى البَحْرِ. كَرَّرَتْ ذٰلكَ مَعَ المَوْجَةِ الثانيَةِ وَالثالثَةِ وَالرابِعَةِ وَما تَلاها. لَعِبَتْ لِساعاتٍ وَلَمْ تَمَلَّ، ما مَنَعَها عَتْمَةٌ وَلا بُرودَةٌ. كانَتْ سَعيدَةً وَكانَتِ الأمْواجُ لَطيفَةً مَعَها، تُدَغْدِغُها بِرِقَّةٍ، وَتُلاعِبُها بِفَرَحٍ، وَتَعْزِفُ لها ألحانًا تُطرِبُها، راسِمَةً أجْمَلَ اللَّوحاتِ الَّتي تَدُلُّ على رَوعَةِ البَحرِ وَعَظَمَةِ الطَّبيعَةِ.

مَرَّتْ ساعاتٌ قَليلَةٌ وَاللَّعِبُ لَمْ يَتَوَقَّفْ عِندَ الشاطِئِ الرَّمليِّ، وَلٰكِنْ، وَقَبْلَ أنْ يَنْتَصِفَ اللَّيلُ بِقَليلٍ، حَدَثَ أمْرٌ أخافَ القِسْمَ الأكبَرَ مِنْ حَبّاتِ الرَّملِ، الَّتي انْصَرَفَتْ عَنِ اللَّعِبِ فَجْأَةً، وَوَقَفَتْ مَشْدُوهَةً أمامَ ما استَجَدَّ عِندَ ذٰلكَ الشاطِئِ.

- ما هٰذا يا رِفاقُ؟!...

صَرَخَتْ بَعضُ حَبّاتِ الرَّمْلِ سائلَةً. أجابَتْها حَبَّةُ رَمْلٍ عَجُوزٌ:

- لا تَخَفْنَ، إنَّهُنَّ زائراتٌ لَطيفاتٌ.

- لٰكِنَّهُنَّ ضَخْماتٌ جِدًّا، وَنَخافُ مِنْ أنْ نَنْسَحِقَ تَحْتَ أجْسادِهِنَّ.

ضَحِكَتْ حَبَّةُ الرَّمْلِ العَجُوزُ، وَقالَتْ لَهُنَّ:

- لو شاهَدْتُنَّهُنَّ قَبْلَ ثَلاثينَ عامًا لَما خِفْتُنَّ.

سَأَلَتْها حَبَّةُ رَمْلٍ صَغيرَةٌ بِدَهْشَةٍ:

- قَبْلَ ثَلاثينَ عامًا؟!... هَلْ كُنَّ هُنا عِندَ هٰذا الشاطِىءِ؟!...

- نَعَمْ!... وَلٰكِنَّهُنَّ كُنَّ صَغيراتٍ، فَقَدْ وُلِدْنَ عِندَ هٰذا الشاطِىءِ قَبْلَ ثَلاثينَ عامًا، وَرَحَلْنَ إلى البَحْرِ وَكَبِرْنَ في أعْماقِهِ، وَاليَومَ يَعُدْنَ بَعدَ أنْ أصْبَحْنَ أمَّهاتٍ، وَسَيَضَعْنَ بُيوضَهُنَّ في المَكانِ ذاتِهِ الَّذي وُلِدْنَ فيهِ.

عَجِبَتْ حَبّاتُ الرَّمْلِ مِمّا سَمِعَتْهُ. لاحَظَتْ حَبَّةُ الرَّمْلِ العَجوزُ ذٰلكَ فَشَرَحَتْ لَهُنَّ الأمْرَ، قائلَةً:

- هٰذِهِ الزّائراتُ الضَّخْماتُ تُسَمّى السَّلاحِفَ البَحْرِيَّةَ وَهِيَ مِنْ مَجموعَةِ الزَّواحِفِ الَّتي يَرْجِعُ وجُودُها على الكُرَةِ الأَرْضِيَّةِ إلى مِليونِ سَنَةٍ خَلَتْ، وَالَّتي عاشَتْ على البَرِّ ثُمَّ دَخَلَتِ البَحْرَ وَتَطَوَّرَتْ مَعَ مُرورِ القُرونِ، وَتَأَقْلَمَتْ وَتَكَيَّفَتْ مَعَ حَياتِها

الجَديدَةِ، وَهِيَ سابِحَةٌ ماهِرَةٌ، وَتَسْتَطيعُ البَقاءَ تَحْتَ المياهِ لِمُدَّةٍ طَويلَةٍ، إلاّ أنَّ ارتِباطَ أَسْلافِها الأوائِلِ بِالبَرِّ، جَعَلَ لها خَصائِصَ باقِيَةً مَعَها حتى الوَقْتِ الحاضِرِ، حَيْثُ لها رِئَتانِ بِعَكسِ الأسْماكِ، وَهٰذا ما يَجْعَلُها بِحاجَةٍ إلى تَنَشُّقِ الهَواءِ.

دُهِشَتْ حَبَّةُ رَمْلٍ يافِعَةٌ، وَسَأَلَتْها بِذَكاءٍ:

ـ كيفَ سَتَتَنَشَّقُ الهَواءَ وَهِيَ تَحتَ المياهِ؟

أعْجَبَها السؤالُ، فَأجابَتْ:

ـ هٰذِهِ السَّلاحِفُ تَقْضي مُعْظَمَ وَقْتِها تَحتَ المياهِ وَلَيْسَ كُلَّهُ، فَهِيَ بِحاجَةٍ كُلَّ خَمْسِ ساعاتٍ إلى إبْرازِ رُؤوسِها فَوْقَ المياهِ لِلتَّنَفُّسِ وَتَزْويدِ رِئَتَيْها بِالهَواءِ، ثُمَّ العَوْدَةِ مُجَدَّدًا إلى الأعْماقِ، وَإذا لَمْ تَفْعَلْ ذٰلِكَ سَتَخْتَنِقُ بِالتأْكيدِ.

ـ وَلٰكِنْ، ماذا تَحْمِلُ فَوْقَ ظُهورِها؟ فَأَنا لا أرى إلاَّ هَيْكَلاً عَظْمِيًّا!

قَهْقَهَتِ العَجوزُ طَويلاً، ثُمَّ قالَتْ:

ـ نَعَمْ!... السَّلاحِفُ مِنَ الكائِناتِ القَليلَةِ الَّتي تَمْلِكُ هَيْكَلاً عَظْمِيًّا خارِجِيًّا بِالإضافَةِ إلى هَيْكَلِها الداخِلِيِّ، وَوَظيفَةُ هٰذا الهَيْكَلِ العَظْمِيِّ هِيَ حِمايَةُ أعْضاءِ الجِسْمِ وَتَدْعيمُها.

ـ آه!... فَهِمْتُ. يا سُبْحانَ اللهِ!... الهَيْكَلُ يَحْميها أيْضًا مِنَ

الحَيَواناتِ المُفْتَرِسَةِ، أَلَيْسَ كَذٰلِكَ؟!... فَأنا لا أظُنُّ أنَّ حَيَوانًا ما سَيَأْكُلُ هَيْكَلاً عَظْمِيًّا!

ـ مَعَكِ حَقٌّ!... عِنْدَما تُولَدُ هٰذِهِ السَّلاحِفُ هُنا في أحْضانِنا، عِنْدَ الشَّواطِئِ الرَّمْلِيَّةِ، تَكونُ عُرْضَةً لِلخَطَرِ، حَيْثُ تَلْتَهِمُ السَّرَطاناتُ البَحْرِيَّةُ وَالطُّيورُ، وَبَعْضُ الحَيَواناتِ الأُخْرى، عَدَدًا مِنْها قَبْلَ دُخولِها البَحْرَ، وَهُناكَ في المياهِ، يَذْهَبُ بَعْضُها فَريسَةَ الأَسْماكِ، وَيَسْعى ما يَنْجو مِنها لِحِمايَةِ حَياتِهِ، فَتَقْضي سَنَواتٍ مِنْ عُمْرِها في المِياهِ العَميقَةِ، وَتَكْبُرُ بِبُطْءٍ مُحاوِلَةً الإخْتِباءَ مِنَ المُفْتَرِساتِ، وَعِنْدَ البُلوغِ تُصْبِحُ ضَخْمَةً فَلا تَقْوى على افتِراسِها إلاّ الأَسْماكُ الكَبيرَةُ كَسَمَكِ القِرْشِ.

كانَتْ حَبّاتُ الرَّمْلِ تُصْغي بِدَهْشَةٍ إلى حَبَّةِ الرَّمْلِ العَجوزِ. سَرَّها ما سَمِعَتْهُ، وَاطْمَأَنَّتْ إلى الزائِراتِ الضَّخْماتِ بَعْدَ أنْ عَلِمَتْ أنَّها حَيَواناتٌ مُكافِحَةٌ، وَمُخْلِصَةٌ وَلَطيفَةٌ؛ فَها هِيَ تَعودُ بَعْدَ ثَلاثينَ عامًا لِتَضَعَ بُيوضَها عِنْدَ الشاطِئِ ذاتِهِ الَّتي وُلِدَتْ عِنْدَهُ.

عَمَّ الصَّمْتُ المَكانَ لِبَعْضِ الوَقْتِ. انْصَرَفَتْ حَبّاتُ الرَّمْلِ عَنِ الأسْئِلَةِ وَراحَتْ تُراقِبُ السَّلاحِفَ. كانَتْ هٰذِهِ الأَخيرَةُ قَدْ تَوَقَّفَتْ عِنْدَ أوَّلِ الشاطِئِ وَسَكَنَتْ، وَبَدَأَتْ بِمُراقَبَةِ المَكانِ.

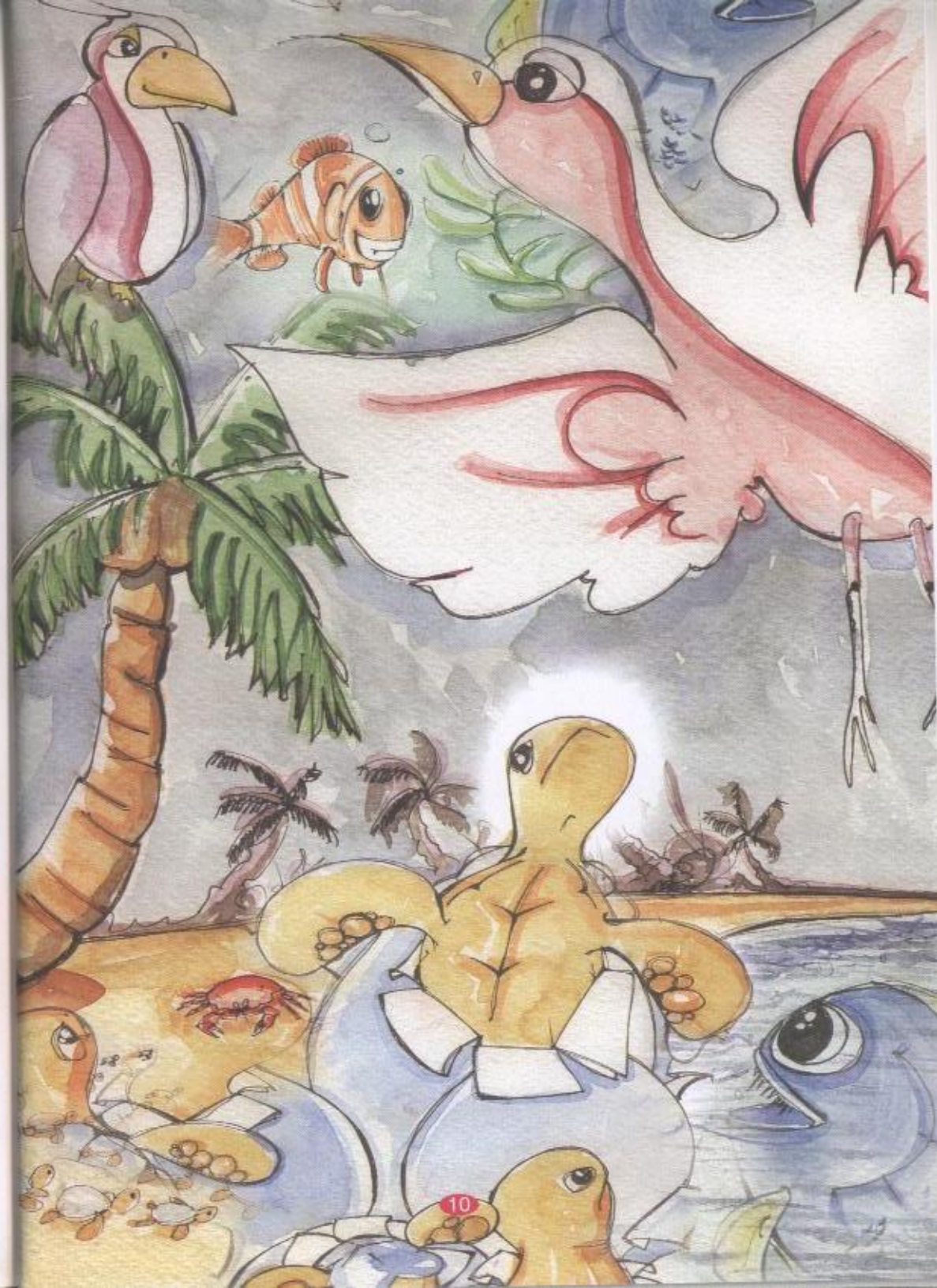

ـ ماذا تَفْعَلُ يا جَدَّتي؟

هَمَسَتْ حَبَّةُ رَمْلٍ صَغيرَةٌ في أُذْنِ العَجوزِ، سائِلَةً. أجابَتْها العَجوزُ بِوَشْوَشَةٍ:

ـ هِيَ الآنَ تُراقِبُ، فَإِذا شاهَدَتْ أضْواءً أوْ سَمِعَتْ أصْواتًا سَتَنْزَعِجُ وَتُغادِرُ المَكانَ فَورًا، وَلَنْ تَضَعَ بيوضَها، وَسَتَخْتارُ مَكانًا هادِئًا، وَمِنْ أجْلِ ذٰلِكَ قَدِمَتْ لَيلاً.

ـ هَلْ يَعني كَلامُكِ أنَّها تَسْمَعُ وَتَرى؟

ـ بِالطَّبْعِ!... السُّلَحْفاةُ البَحْرِيَّةُ شَديدَةُ الحَساسِيَّةِ تُجاهَ الأصْواتِ، حَيْثُ تَقَعُ طَبْلَةُ الأُذُنِ مُسْتَوِيَةً على الرَّأْسِ خَلْفَ العَيْنَيْنِ، وَيُمَكِّنُها ذٰلِكَ مِنَ التَعَرُّفِ عَلى أقَلِّ التَرَدُّداتِ الصَّوْتِيَّةِ. لِذٰلِكَ أنا أُحَدِّثُكِ الآنَ بِصَوْتٍ خَفيضٍ.

ـ آه!... فَهِمْتُ. وَهَلْ تَرى؟

ـ نَعَمْ!... تَرى، وَلٰكِنَّها لا تَسْتَطيعُ التَّمييزَ بَيْنَ الألْوانِ، وَما يُعَوِّضُ حاسَّةَ النَّظَرِ عِنْدَها، كما قُلْتُ لَكِ، حاسَّةُ السَّمْعِ، وحاسَّتا الشَّمِّ وَاللَّمْسِ أيْضًا؛ فَالسَّلاحِفُ البَحْرِيَّةُ تَمْتازُ بِحاسَّةِ شَمٍّ مُرْهَفَةٍ تَتَفَوَّقُ بِها على أسْماكِ القِرْشِ، وَحتّى على الكِلابِ في بَعْضِ الأحْيانِ، وَلَدَيْها حَساسِيَّةٌ شَديدَةٌ في اللَّمْسِ، فَهِيَ تَتَأثَّرُ على الفَوْرِ بِأيِّ شَيءٍ يَلْمُسُها.

صَرَخَتِ الصَّغيرةُ بِدَهْشَةٍ:

ـ يا اللهُ!... يا لَرَوْعَةِ هٰذِهِ السَّلاحِفِ!

ـ «هُسْ هُسْ»... أخْفِضي صَوتَكِ.

ـ أَعْتَذِرُ يا جَدَّتي، فَقَدْ أَعْجَبَتْني هٰذِهِ الحَيَواناتُ اللَّطيفَةُ وَأَحْبَبْتُها، فَعَبَّرْتُ عَنْ مَشاعِري.

ـ لا بَأْسَ!... لا بَأْسَ!...

عادَتْ الإثْنَتانِ لِمُراقَبَةِ ما يَحْدُثُ. مَرَّ وَقْتٌ قَصيرٌ تَأَكَّدَتْ خِلالَهُ الزائراتُ الضَخْماتُ مِنْ عَدَمِ وُجودِ أضْواءٍ وَأصْواتٍ. بَدَأَتْ تَتَقَدَّمُ بِبُطْءٍ فَوْقَ الرِّمالِ، وَتَبْتَعِدُ رُويدًا رُويدًا عَنِ المياهِ. لَمْ تَعُدْ حَبّاتُ الرَّمْلِ خائِفَةً مِنها بَعْدَ أنْ عَلِمَتْ أنَّ هٰذِهِ الضَخْماتِ أتَيْنَ لِيَضَعْنَ بُيوضَهُنَّ في أحْضانِها. شَعَرَتْ بِالفَخْرِ لِأَنَّها سَتَكونُ حاضِنَةً لِآلافِ البُيوضِ الَّتي سَتَضَعُها لِفَتْرَةٍ تَصِلُ إلى شَهْرَيْنِ، عَلى أن تَفْقِسَ بَعدَها وَتَخْرُجَ مِنها سَلاحِفُ صَغيرَةٌ.

تَحَمَّلَتْ حَبّاتُ الرَّمْلِ الألَمَ عِندَما بَدَأَتْ عَشَراتُ السَّلاحِفِ الضَّخْمَةِ تَزْحَفُ فَوقَها باتِّجاهِ المَكانِ الَّذي سَتَضَعُ فيهِ بُيوضَها. اسْتَمَرَّتْ في مُراقَبَةِ ما يَحْدُثُ. دَقائِقُ مَرَّتْ، وَصَلَتْ بَعدَها الضَخْماتُ إلى أمْكِنَةٍ تَبْعُدُ أَمْتارًا عِدَّةً عَنِ المياهِ. بَدَأَتْ على الفَورِ بِحَفْرِ حُفَرٍ تَسْتَوْعِبُ بُيوضَها. حَفَرَتْ كُلُّ واحِدَةٍ مِنْها

حُفْرَةً تَسْتَوعِبُ جِسْمَها، ثُمَّ حُفْرَةً أُخرى على شَكلِ جَرَّةٍ، وَكانَتْ تَسْتَخْدِمُ في هٰذِهِ العَمَلِيَّةِ قائِمَتَيْها الخَلْفِيَّتَيْنِ، وَمِنْ ثُمَّ تَغْرِفُ الرَّمْلَ بِتَأَنٍّ بِإحدى القائِمَتَيْنِ وَتَطرَحُهُ جانِبًا، وَتَغْرِفُ كَمِيَّةً أُخرى مِنْهُ بِالقائِمَةِ الثانِيَةِ.

جُهِّزَتِ الحُفَرُ بَعدَ دَقائِقَ، وَبَدَأَتْ كُلُّ سُلَحْفاةٍ بِوَضْعِ بُيوضِها الطَّرِيَّةِ كالجِلدِ. كانَتْ تَضَعُ بَيضَةً أو بَيضَتَيْنِ مَعًا، وَفيما كانَتْ تَقُومُ بِذٰلِكَ، كانَتِ الدُّموعُ تَجْري مِنْ عَينَيْها لِتُبْقيهِما رَطْبَتَيْنِ وَتَحْميهِما مِنَ الرَّمْلِ الَّذي قَدْ تَحمِلُهُ إِليهِما نَسَماتُ الهَواءِ.

لَمْ تَدْرِ حَبّاتُ الرَّمْلِ، الَّتي كانَتْ تُراقِبُ عَمَلِيَّةَ وَضْعِ البُيوضِ، كَمْ مَرَّ مِنَ الوَقتِ عِندَما أَنْهَتِ السَّلاحِفُ وَظيفَتَها. جُلُّ ما عَرِفَتْهُ أَنَّ كُلَّ سُلَحْفاةٍ وَضَعَتْ في كُلِّ حُفْرَةٍ حَفَرَتْها نَحوَ مائَةِ بَيْضَةٍ، يَتَراوَحُ قُطْرُ الواحِدَةِ مِنها بَيْنَ أَرْبَعَةٍ وَسَبْعَةِ سَنتيمِتراتٍ. وَالَّذي أَدْهَشَها أَنَّ السَّلاحِفَ شَرَعَتْ بِتَغْطِيَةِ بُيوضِها بِالرَّمْلِ على عُلُوِّ نِصْفِ مِتْرٍ، ثُمَّ عَمَدَتْ إلى رَصِّهِ، وَخَوْفًا عَلَيْها مِنْ حَيواناتٍ مُتَطَفِّلَةٍ، عَمَدَتْ أَيْضًا إلى تَخْبِئَتِها، فَقامَتْ بِنَثْرِ الرَّمْلِ عَشْوائِيًّا حَولَ وإلى جانِبِ الحُفَرِ، مُسْتَخْدِمَةً قائِمَتَيْها، لِتُوهِمَ المُتَطَفِّلينَ أَنْ لا شَيْءَ حَدَثَ في المَكانِ. وَالعَجيبُ أَنَّ السَّلاحِفَ غادَرَتِ الشّاطِئَ بِسُرْعَةٍ بَعدَ إِنْجازِ وَظيفَتِها الرائِعَةِ، وَعادَتْ إلى أَعْماقِ البَحرِ.

عَمَّتِ الدَّهْشَةُ المَكانَ. أَمْواجُ البَحرِ سَكَنَتْ وَسَجَدَتْ خاشِعَةً وَما عادَتْ تُزْبِدُ، احتِرامًا لِسَلاحِفِ البَحرِ، وَتَمْجيدًا لِقُدْرَةِ الخالِقِ في خَلقِهِ.

ما حَدَثَ، أَعْطى دَليلاً آخَرَ عَلى عَظَمَةِ هٰذا الكونِ، وَرَوعَةِ الحَياةِ. حَبّاتُ الرَّمْلِ كانَتْ في سَعادَةٍ لا تُوصَفُ؛ كَيْفَ لا، وَهِيَ الَّتي اختارَتْها تِلكَ الضَّخْماتُ مِنْ بَيْنِ كُلِّ الأَشْياءِ وَالأَمكِنَةِ لِتَكونَ الرّاعِيَةَ لِبُيوضِها! كَيْفَ لا، وَقَدْ عادَتْ إِليها تِلكَ السَّلاحِفُ بَعْدَ عَشَراتِ السِّنينَ، قادِمَةً مِنْ أَعْماقِ البِحارِ، على بُعدِ آلافِ الأَمْيالِ، لِتَمْنَحَها شَرَفَ احتِضانِ بُيوضِها!

مَرَّتْ ساعَةٌ عَلى مُغادَرَةِ السَّلاحِفِ ذٰلِكَ الشاطِئَ الرَّمْليَّ الجَميلِ. بَعضُ حَبّاتِ الرَّمْلِ أَرادَتِ العَودَةَ إِلى اللَّعِبِ مَعَ الأَمْواجِ، لٰكِنَّها فُوجِئَتْ بِحَبَّةِ الرَّمْلِ العَجوزِ وَهِيَ تُنَبِّهُها، قائِلَةً:

ـ اَلْعَبْنَ كما تَشِئْنَ، وَلٰكِنْ، ابتِداءً مِنْ هٰذِهِ اللَّحْظَةِ، أَمامَكُنَّ مُهِمَّةٌ ومَسؤولِيَّةٌ، فَأَنْتُنَّ سَتَحْرُسْنَ البُيوضَ حَتى تَفْقِسَ.

لَمْ تُخْفِ حَبّاتُ الرَّمْلِ دَهْشَتَها مِنْ هٰذا الكَلامِ، بَلْ أَظْهَرَ البَعضُ مِنْها انْزِعاجَهُ، وَسَأَلَ «العَجوزَ»:

ـ لِماذا لَمْ تَبْقَ السَّلاحِفُ هُنا لِتَحْرُسَ بُيوضَها؟ ولِماذا سَنَقومُ نَحْنُ بِمُهِمَّةٍ لَيْسَتْ مِنْ مَسؤولِيّاتِنا؟

- وَظيفَةُ السَّلاحِفِ وَضْعُ البُيوضِ، وَبَعدَ ذٰلِكَ لا تَلْقى البُيوضُ أيَّ عِنايَةٍ. هٰذِهِ هِيَ طَبيعَتُها، فَكُلُّ حَيٍّ في هٰذه الحَياةِ لَهُ دَورُهُ، وَكُلُّ ما خُلِقَ في هٰذا الكونِ يُكمِّلُ دَوْرَ الآخَرِ لِتَكتَمِلَ دَورَةُ الحَياةِ، لِذٰلِكَ كُنَّ حَذِراتٍ، فَقَدْ تَصِلُ الأمْواجُ خِلالَ المَدِّ إلى الأمْكِنَةِ الَّتي تُوجَدُ فيها البُيوضُ، وإذا انْصَرَفْتُنَّ إلى اللَّعِبِ وابْتَعَدْتُنَّ عَنْ هٰذهِ الأمْكِنَةِ، سَتُدَمِّرُ المياهُ الحُفَرَ، بِالإضافَةِ إلى ذٰلِكَ، قَدْ تَعْثُرُ بَعضُ الحَيواناتِ الضّارِيَةِ على البُيوضِ بِوَساطَةِ حاسَّةِ شَمِّها وَتَلْتَهِمُها، وَبِذٰلِكَ لَنْ يُولَدَ جيلٌ آخَرُ مِنْ صِغارِ السَّلاحِفِ البَحْرِيَّةِ، وَهٰذا يَعْني أنَّكُنَّ سَتُحْرَمْنَ مِنَ السَّعادَةِ الَّتي غَمَرَتْكُنَّ اليَومَ، بَعدَ ثَلاثينَ عامًا أو أكثَرَ، لِأنَّهُ لَنْ تُوجَدَ حينَها سَلاحِفُ لِتَلِدَ عِندَ هٰذا الشاطِئِ.

جاءَ كَلامُ «العَجوزِ» مُقْنِعًا، وَلٰكِنَّ حَبَّةَ رَمْلٍ سَمْراءَ سَأَلَتْها:

- هَلْ سَتَعودُ السَّلاحِفُ الضَّخْماتُ الَّتي زارَتْنا اليَومَ لِتَضَعَ بُيوضَها مَرَّةً جَديدَةً؟

- بِالطَّبْعِ!... السَّلاحِفُ البَحرِيَّةُ هِيَ مِنْ أطوَلِ الحَيواناتِ عُمُرًا على وَجْهِ الأرْضِ، إذْ إنَّها تُعَمَّرُ حتّى مائةِ سَنَةٍ، وَبَعْضُها يَضَعُ بُيوضَهُ لِأوَّلِ مَرَّةٍ في سِنِّ الثَّلاثينَ، وَتَتَكَرَّرُ العَمَلِيَّةُ كُلَّ ثَلاثِ أوْ أرْبَعِ سَنَواتٍ.

طالَ الحَديثُ في تِلكَ اللَّيلَةِ عَنِ السَّلاحِفِ البَحريَّةِ، وَلٰكِنَّ الوَقْتَ تَعَوَّدَ أنْ يُهَرْوِلَ، فَسُرْعانَ ما انْبَلَجَ الصُبْحُ، وَبَدَأَ الضَوءُ يُرْسِلُ إشْراقَتَهُ الهادِئَةَ فَوقَ الرِمالِ المُرْهَقَةِ. لَمْ يَدْرِ الضَوءُ أنَّ آلافًا مِنَ البُيوضِ خُبِّئَتْ تَحْتَ هٰذِهِ الرِّمالِ، وَلَمْ تَشْعُرِ الطُيورُ الَّتي جاءَتْ لِتَلهُوَ عِندَ الشاطِئِ، وَتُفَتِّشَ عَنِ الطَّعامِ، وَلا سَرَطاناتُ البَحرِ الَّتي اسْتَيقَظَتْ لِتَوِّها، بِشَيءٍ غَيرِ اعتِيادِيٍّ. فَبُيوضُ السَّلاحِفِ في أعْشاشٍ وَحُفَرٍ عَميقَةٍ، تَكسُوها الرِّمالُ وَتُغَطّيها، وَلا يُمْكِنُ لِمَخْلوقٍ اكتِشافُ مَخابِئِها، بِاسْتِثْناءِ تِلكَ الحَيَواناتِ المُتَمَتِّعَةِ بِحاسَّةِ شَمٍّ قَويَّةٍ كَالكِلابِ وَالثَّعالِبِ وَغَيرِها. لٰكِنَّ الرِمالَ كانَتْ تَحْرُسُ تِلكَ البُيوضَ بِشَجاعَةٍ، وَهِيَ لَنْ تَتَوانى عَنِ الحِفاظِ عَلَيْها حَتّى تَفْقِسَ.

مَرَّ نَحْوُ شَهْرَيْنِ. كانَ يَجيءُ نَهارٌ وَيَتْبَعُهُ لَيْلٌ، ثُمَّ يَجيءُ نَهارٌ آخَرُ وَيَتْبَعُهُ لَيْلٌ آخَرُ. وَحانَ وَقْتُ تَفْقيسِ البُيوضِ أخيرًا. كانَتْ لَحَظاتٌ مُؤَثِّرَةٌ. شَهِدَتْ حَبّاتُ الرَّمْلِ وِلادَةَ آلافِ السَّلاحِفِ. كانَ اللَّيْلُ يُحْتَضَرُ عِندَما بَدَأَتْ حَبّاتُ الرَّمْلِ، الَّتي تَحْتَضِنُ البُيوضَ، تَشْعُرُ بِدَغْدَغَةٍ. لَمْ تَمُرَّ دَقائِقُ حَتّى اكتَشَفَتْ ما يَحْدُثُ، فَفي وَقْتٍ واحِدٍ بَدَأَ قِشْرُ البُيوضِ يَتَشَقَّقُ تَدْريجًا، وَبَدَأَتْ فِراخُ السَّلاحِفِ تَخْرُجُ مِنْهُ.

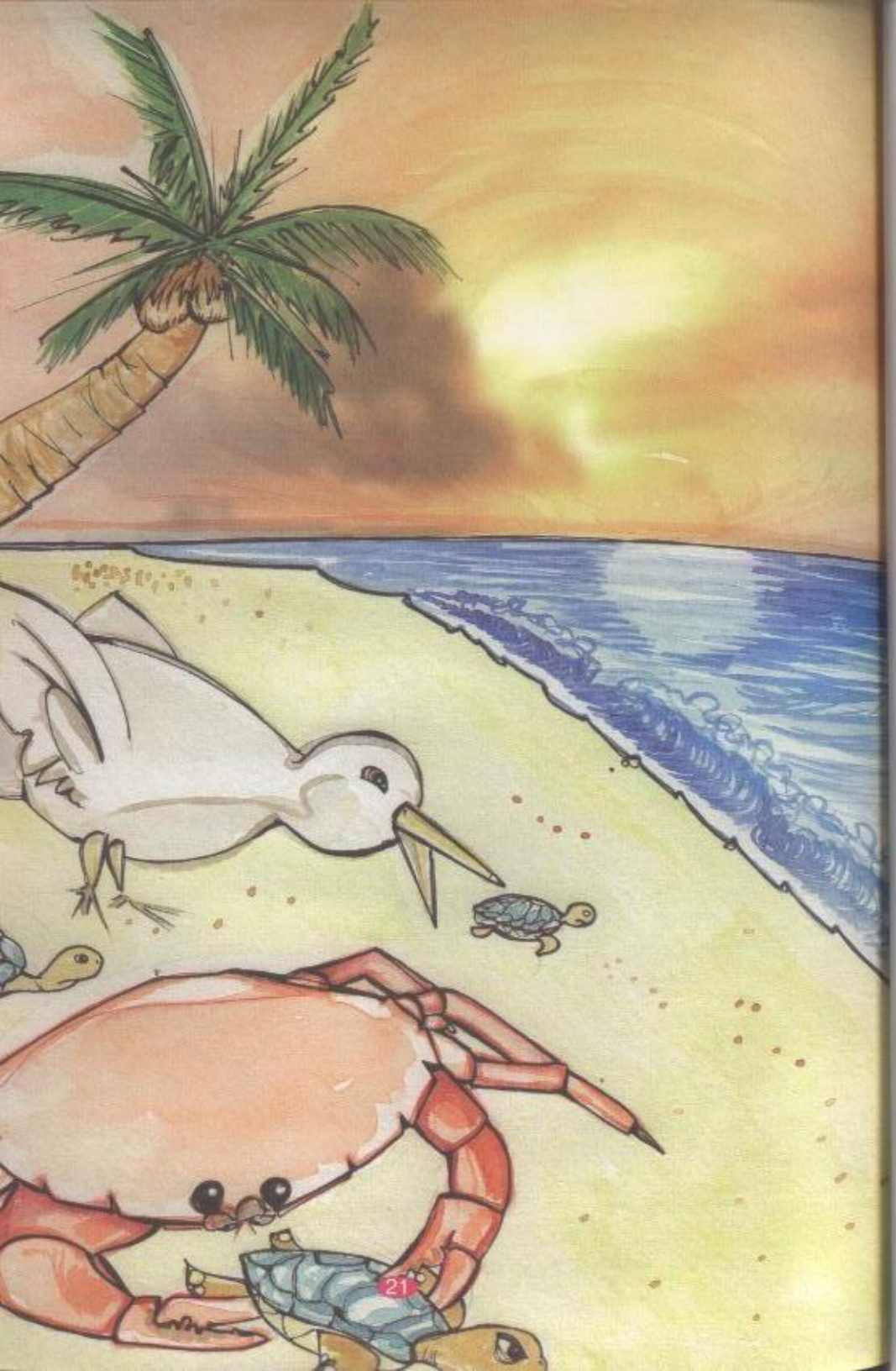

صُعِقَتْ حَبّاتُ الرَّمْلِ مِنَ المَشْهَدِ!... فِراخٌ صَغيرَةٌ لا يَتَجاوَزُ طُولُ الواحِدِ مِنْها خَمْسَةَ سَنْتيمِتراتٍ، وَلا يَكادُ يَخْرُجُ أَحَدُها مِنَ البَيْضَةِ حتى يَبْدَأَ بِشَقِّ طَريقِهِ نَحوَ سَطحِ الرِّمالِ، وَبَعدَ تَفْتيتِ الرَّمْلِ مِنَ الجانِبَيْنِ، وَمِنْ أَعلى العُشِّ، يَنْهالُ الرَّمْلُ إلى قَعْرِ الحُفْرَةِ مَعَ قِشْرَةِ البَيْضَةِ المَطْروحَةِ، وَبِذٰلِكَ يَرْتَفِعُ قَعْرُ العُشِّ تَدْريجًا وَيُصْبِحُ بِمُسْتَوى السَّطْحِ.

- يا سُبْحانَ اللهِ!...

صَرَخَتْ حَبّاتُ الرَّمْلِ مَجْتَمِعَةً وَهِيَ تُشاهِدُ كِفاحَ فِراخِ السَّلاحِفِ لِلخُروجِ مِنْ باطِنِ الحُفْرَةِ إلى السَّطحِ.

- لٰكِنْ، لِماذا تَتَجَمَّعُ الفِراخُ عِندَ حافَةِ العُشِّ؟

سَأَلَ بَعْضُها حَبَّةَ الرَّمْلِ العَجوزَ. فَأَجابَتْ:

- تَنْتَظِرُ كَيْ يُصْبِحَ الجَوُّ أَكثَرَ بُرودَةً في الخارِجِ، وَهِيَ سَتُغادِرُ المَكانَ قَبْلَ انْبِلاجِ الفَجْرِ بِقَليلٍ وَتَتَوَجَّهُ نَحوَ البَحْرِ.

- هَلْ سَتُغادِرُ جَميعُها المَكانَ في الوَقْتِ ذاتِهِ؟

- نَعَمْ!... مَنْ يَسْتَطيعُ مِنْها الوُصولَ إلى سَطْحِ العُشِّ.

- هَلْ يَعْني هٰذا أَنَّ بَعضَها لَنْ يَقْوى على الوُصُولِ إلى السَّطحِ؟

- نَعَمْ!... لِلأَسَفِ!... بَعضُ الفِراخِ سَيَكونُ ضَعيفَ البِنْيَةِ، وَهٰذا لَنْ يُساعِدَهُ على الخُروجِ مِنَ العُشِّ وَالِانْطِلاقِ في هٰذِهِ الحَياةِ.

لَـمْ تُخْفِ حَبّاتُ الرَّمْـلِ حُزْنَها على الفِراخِ الَّتي لَنْ تَسْـتَطيعَ مُغادَرَةَ أعْشاشِها، وَلٰكِنَّها أَدْرَكَتْ أنَّ هٰذِهِ هِيَ سُنَّةُ الحَياةِ، فَراحَتْ تُراقِبُ آلافَ السَّلاحِفِ الصَّغيرَةِ الَّتي تَتَهَيَّأُ لِمُغادَرَةِ الشاطِئِ.

وَصَلَتِ البُرودَةُ إلى حَدِّها الأَقْصى، فَبَدَأَتْ مَرْحلةٌ جَديدَةٌ في مَسيرَةِ فِراخِ السَّـلاحِفِ الطَّويلةِ. كانَ المَشْـهَدُ رائِعًـا. تَوَجَّهَتِ الفِـراخُ بِسُـرْعَةٍ نَحـوَ المِياهِ، وَبَدَتْ مِـنْ بَعيدٍ كَأَنَّهـا جُيوشٌ مِنَ النَّمْـلِ. كانَتْ أمامَها أمْتارٌ عِدَّةٌ عليها اجتيازُها قَبْلَ الوُصُولِ إلى المِياهِ، وَكانَ عَلَيْها أنْ تُسَـرِّعَ زَحْفَها فَـوقَ الرِّمالِ كَيْ تَصِلَ .لَمْ تُدْرِكْ أنَّ مِئاتِ السَّرَطاناتِ البَحْرِيَّةِ وَالطُّيورِ سَتَكْمُنُ لها وَتَلتَهِمُ بَعضَها.

ـ عَلَيْها أنْ تُكافِحَ وَتُقاوِمَ كَيْ تَسْلَمَ مِنَ الطُّيورِ وَالسَّرَطاناتِ.

قالَتْ حَبَّةُ الرَّمْلِ العَجوزُ بِفَخْرٍ وَأسًى في آنٍ مَعًا.

سَأَلَتْها حَبَّةُ رَمْلٍ صَغيرَةٌ:

ـ ماذا سَتَفْعَلُ عِندَما تَصِلُ إلى المِياهِ؟

ـ سَـتُحاوِلُ الغَوْصَ في الأَعْماقِ وَتَسْبَحُ آلافَ الأَمْيالِ، وَتَخْتَبِئُ مِنَ الأَسْماكِ الَّتي تَجِدُ فيها طَعامًا شَهِيًّا.

ـ وَبِالطَّبْعِ سَتَنْمو وَتَعُودُ إلَيْنا بَعدَ نَحوِ ثَلاثينَ عامًا.

ـ بِالتَّأْكيدِ!...

ـ إذًا ما رَأْيُكِ يا جَدَّةُ بِأنْ نُطْلِقَ على بَعضِ هٰذِهِ الفِراخِ أسْماءَ؟ وَعِندَما تَعُودُ إلَيْنا، نُناديها بِأسْمائِها كَيْ نُذَكِّرَها بِأَنَّنا نَعْرِفُها جَيِّدًا.

اسْتَسـاغَتْ حَبَّةُ الرَّمْلِ العَجوزُ الفِكـرَةَ، وَبَدَأَ الجَميعُ يُطْلِقونَ على فِراخِ السَّـلاحِفِ أسْماءَ عِدَّةً. فَتِلكَ أسْمَوْها لولو، وَأُخرى نُونُـو، ثُمَّ أُخـرى زازا، وساسـا، تاتا، جاجا، حاحـا، دادا، رارا، صاصا، طاطا، وَعَشَراتِ الأَسْماءِ الأُخرى.

لَـمْ يَبْدَإِ الضَوءُ بِالسُّـطُوعِ، حتّى عادَ الشـاطِئُ وَهَـدَأَ، بَعدَ أنْ غادَرَتْهُ فِراخُ السَّلاحِفِ وَغاصَتْ في البَحْرِ، وَعادَ كُلُّ شَيْءٍ إلى سابِقِ عَهْدِهِ.

مَرَّتِ السَّـنَواتُ بِسُـرْعَةٍ، وَفي إحْدى اللَّيالـي المُقْمِرَةِ، كانَتْ حَبّاتُ الرَّمْلِ تَلهو مَعَ أمْواجِ البَحْرِ. فَجْأَةً تَوَقَّفْنَ عَنِ اللَّعِبِ عِندَما شـاهَدْنَ عَشَـراتِ السَّـلاحِفِ الضَّخْماتِ تَقْتَرِبُ مِنَ الشـاطِئِ.

صَرَخْنَ جَميعُهُنَّ بِصَوتٍ مُشْبَعٍ بِالفَرَحِ:

ـ لَقَدْ عادَتْ صَديقاتُنا بَعدَ غيابِها ثَلاثينَ عامًا.

خافَـتِ السَّـلاحِفُ الضَّخْماتُ مِـنْ صُراخِهِـنَّ، فَعَزَمَتْ على العَوْدَةِ إلى المِياهِ، لٰكِنَّ شَيْئًا مَنَعَها مِنْ ذٰلِكَ، فَقَدْ سَمِعَتْ حَبّاتِ الرَّمْلِ تُناديها بِسَعادَةٍ:

ـ أَهْلاً بِعَودَتِكُنَّ يا لولو وَنُونو وَزازا وَساسا وَتاتا...

لَمْ يَنْتَظِرْنَ سماعَ بَقِيَّةِ أسْمائِهِنَّ، فَهَتَفْنَ:

ـ أهْلاً بِكُنَّ يا صَديقاتُنا حَبّاتُ الرَّمْلِ.

ـ كُلُّ شَيْءٍ جاهِزٌ لِتَضَعْنَ بُيوضَكُنَّ في أَحْضانِنا.

ـ شُكرًا لكُنَّ! فَلولاكُنَّ لَما عُدْنا، فَألفُ شُكرٍ.

كانَتْ كَلِماتُهُنَّ حافِزًا لِحَبّاتِ الرَّمْلِ كَيْ يَعْقِدْنَ حَلباتِ الرَّقْصِ وَالغِناءِ، وَرُحْنَ يُنْشِدْنَ:

أَهْلاً بِكُلِّ السَّلاحِف ... في أَحْضانِ هٰذا البر

لَيْسَ بَيْنَنا مِنْ خائف ... بَعيداتٍ عَنِ الشر

هُدوءٌ دُونَ عَواصِف ... ساطِعٌ ضَوءُ القَمَر

ضَعْنَ البُيوضَ هُنا ... فَنَحْنُ حُرّاسٌ لها

تَظَلُّ في أَحْضانِنا ... إلى مَوعِدِ تَفْقيسِها

ثُمَّ تَخرُجُ وتتركُنا ... فَفي البَحْرِ حَياتُها

أَسْئلة حَوْلَ النَصّ

• قرأتَ القصة واستمتعت بها. حاول أن تجيب على هٰذه الأسئلة:

ـ ما الذي استجدَّ عندَ الشاطئ الرملي فأخاف حبات الرَّمل؟

ـ مَن هُنَّ الزائراتُ اللطيفاتُ؟

ـ كيف تتنفَّسُ السَّلاحِفُ البحرية؟

ـ لماذا تخرج السَّلاحفُ من الماء إلى الشاطئ الرَّمليّ؟

ـ كم بيضة تضع كل سلحفاة وأينَ تخبئُها؟

ـ لماذا شعرت حباتُ الرَّمل بالفخر؟

هل تصل فراخُ السَّلاحف كلها إلى الماءِ بعد خروجها مِنَ البيض

ـ لماذا أطلقت حبّات الرَّمل على فراخ السَّلاحف أسماء؟

• أعربِ الجمل التالية:

ـ ارتدتِ الشمسُ ثوبَها الأحمرَ.

ـ لَمْ تدرِ حبّاتُ الرَّملِ.

ـ لٰكنَّ شيئًا منَعَها.

• هاتِ مرادفات الكلمات التالية:

* ارتدتْ: ..... * يافعة: .....

* حدَثَ: ..... * عادَتْ: .....

* سَكَنَ: ..... * الفخر: .....

• ابحث عن معاني هٰذه الكلمات في قاموسك الصغير:

* مُزْبِدَة: ..... * همَسَتْ: .....

* استساغَ: ..... * المُفترسة: .....

ـ كيف نحفظ مياه البحر مِنَ التلوّث؟

ـ هل تعرف شعوبًا تقتات على بيض السلاحف؟

هل عرفتَ مغزى القصة؟

- **أوجز ما عرفته في سبعة أسطر فقط.**